المقدمة :

تمتعت البصرة بموقع جغرافي مهم عبر كل العصور مما منحها أهمية كبرى في آستراتيجيات الدول الاستعمارية . ففي العصر الحديث وحينما ظهرت حركة الكشوف الجغرافية وما تبعها من ظهور مفهوم الاستعمار الحديث تجلت أهمية البصرة في اوضح صورها من خلال سعي كل الدول الاستعمارية إلى فرض هيمنتها على هذه المدينة ، لاسيما البرتغال التي كانت من رواد الكشوف الجغرافية و الاستعمار الحديث ، حيث سعت بوسائل عده لفرض سيطرتها عليها بعد ان اخذت تتحكم بطرق التجارة القديمة لاسيما طريق التوابل أو البخور الذي يربط الهند وجزر الهند الشرقية بقارة أوربا فكانت البصرة حلقة مهمه في مسار هذا الطريق الحيوي .

تمهيد :

من المعروف ان البرتغاليين كانوا سباقين في مجال الاستعمار الحديث ، بسبب توفر عدة عوامل ساعدتهم في ذلك ، اولها كون بلادهم ساحلية ، مع اهتمام حكومتهم بالابحار وارتياد أعالي البحار فوفرت الخرائط للممرات المائية والمسالك البحرية ، كما احتضنت كوادر خبيرة في الملاحة ، فضلاً عن توفيرها للادوات الملاحية التي كانت تعد متطورة أنذاك ، وقد لعبت روح المغامرة وحب الثروة دوراً حاسماً في ريادة البرتغاليين لمجال الحصول على المستعمرات ناهيك عن الروح الصليبية التي أطرت الاسباب السابقة[١] .

فأدت هذه الظروف في مجملها إلى تمكن البرتغاليين من الدوران حول رأس الرجاء الصالح في سنة ١٤٩٨م ، بقيادة الملاح فاسكو ديكاما Vasco de game، الأمر الذي فتح طرق الشرق وموانئه الغنية أمام البرتغاليين مباشرة ، بعد ان كانوا لايعرفونها إلا عبر وساطة العرب المسلمين [٢] .

ثم جاب البرتغاليين ساحل افريقيا الشرقي واستمروا في ابحارهم شرقاً حتى وصلوا إلى الخليج العربي سنة ١٥٠٧م (٣)ثم إلى الهند سنة ١٥٠٩م وكونوا اول مستعمراتهم فيها على ميناء كاليكوت Calicut[٤] .

ومن جانبه شهد المشرق الاسلامي عند مطلع القرن السادس عشر الميلادي تنامي نفوذ ثلاث دول تصارعت فيما بينها على مد سيطرتها وفرض هيمنتها ، وهي الدولة العثمانية في آسيا الصغرى والتي امتدت إلى اوربا الشرقية والوسطى ، والدولة الصفوية[٥] التي ظهرت في حدود

سنة ١٥٠١م في بلاد فارس وامتد نفوذها من مدينة هراة في افغانستان إلى ديار بكر في جنوب هضبة الاناضول وشمل حتى بغداد التي سيطرت عليها سنة ١٥٠٨م ، بعد اسقاطها لدولة الخروف الابيض (الآق قوينلو) التركمانية ، وثالث هذه الدول هي الدولة المملوكية (١٢٥٠-١٥١٧م) التي حكمت مصر وبلاد الشام وغرب شبه الجزيرة العربية ، فضلاً عن توغل القوى الأوربية الرائدة في مجال الاستعمار والمتمثلة بالبرتغاليين[٦] الذين بدأوا اهتمامهم بمنطقة الخليج العربي منذ سنة ١٤٨٨-١٤٨٩م حينما طاف فيها (بيرو دي كافلهاو) Joao Peres de Cavilhao الذي استطاع من خلال معرفته باللغة العربية جمع معلومات حول النشاط التجاري في المشرق ساعدت لاحقاً قوات بلاده في غزوها العسكري للمنطقة[٧] ومن الجدير بالملاحظة أن أول اتصال بين البصرة والبرتغاليين قد حدث عبر هذا الرحالة حيث كان بصحبة رحالة آخر مواطن له يدعى الفونسو دي بايفا Alfonzo de Paiva لكنهما افترقا في عدن فسار (كافلهاو) إلى (كوا) Coa على ساحل الهند الغربي ومنها إلى جزيرة هرمز في الخليج العربي ثم زار البصرة وبلاد الشام ومصر[٨]. وبعد ست عشرة سنة تقريباً من تلك الرحلة دخل البرتغاليون الخليج العربي في سنة ١٥٠٦م ، وفي تسع سنوات لاحقة كانوا قد سيطروا على موانئه وراحوا يحتكرون تجارته ، الأمر الذي أوجد اوضاعاً جديدةً ظهرت في مختلف الانحاء[٩] .

وقد تأثرت البصرة بهذه التطورات تأثراً مباشراً فحكومتها المحلية بزعامة أميرها راشد بن مغامس آل عليان[١٠] حاول في بداية الأمر الأذعان لسيطرة الصفويين في مسعى منه للحفاظ على علاقات البصرة التجارية مع بلاد فارس ، لكنه ما لبث أن غَيّر توجهاته حينما سقطت بغداد بيد العثمانيين سنة ١٥٣٤م ليعلن ولائه للباب العالي ، وربما يعود ذلك إلى محاولته جر الدولة العثمانية باعتبارها أعظم قوة برية حينها إلى رأس الخليج العربي لتقوم بالقضاء على الوجود البرتغالي وكسر هيمنتهم البحرية و التجاريه على موانئ المنطقة[١١] .

<u>البصرة وسياسة البرتغاليين الاحتكارية :</u>

يعد عام ١٥٠٦م نقطة تحول في حركة الاستعمار البرتغالي في الشرق ففيها غادر (الفونسو دي البوكيرك) Alfonzo de Albuquerque لشبونة Lisbon ليقود القوات البرتغالية في الشرق ، ثم أصبح في سنة ١٥٠٩م نائباً لملك البرتغال في الهند ، فقد كان البوكيرك صاحب أطماع كبيرة تقوم على تأسيس امبراطورية برتغالية استعمارية صليبية كبيرة ، تنتزع التجارة الشرقية من أيدي العرب المسلمين ، وكانت خطته لتحقيق اطماعه تقوم على ضرورة السيطرة

على مراكز التجارة البحرية الشرقية في البحر الأحمر وعدن وجنوب شبه الجزيرة العربية ، فضلاً عن السيطرة على البحرين والقطيف ورأس الخليج العربي المتمثل بالبصرة[١٢] . سيما وإن البرتغاليين كانوا ينظرون إلى البصرة نظرة مملوءله بالحقد والحسد ، فوضعوا المدينة ضمن مشروعاتهم الاستعمارية وحاولوا استغلال اي فرصة سنحت لهم لفرض سيطرتهم عليها[١٣] . لكونها من اعظم اسواق الشرق والعالم اذ تمتعت بشهرة كبيرة لاتدانيها سوى شهرة بغداد باسواقها وخاناتها[١٤] .

ولتحقيق اطماع (البوكيرك) المذكورة ، شرع البرتغاليون في تطبيق سياسة اقتصادية قائمة على فرض الضرائب الباهضة على سكان الموانئ الخليجية التي وقعت تحت النفوذ البرتغالي بعد تدميرها، فضلاً عن ألحاق الخراب بالمراكز التجارية والبحرية في المنطقة عن طريق أحراق الموانئ بما فيها من سفن راسية ، وحرمان السكان من حقهم في المتاجرة باتباع وسائل النهب والقرصنة ، ومنع أيةً سفينة عربية من ممارسة التجارة دون أذن رسمي بالملاحة صادر منهم ، كما عمدوا إلى فرض رسوم كمركية على نشاطات الشحن والتفريغ والتخزين في الموانئ العربية باشراف موظفين كبار مثلوا الارستقراطية البرتغالية ، ولم يكن يسمح لأي سفينة بمغادرة الموانئ التي خضعت لنفوذهم بدونها وإلا تعرضت للسلب والنهب من قبلهم ، وجرت العادة أن تقوم القوات البرتغالية الاستعمارية بتحصيل الرسوم الكمركية على البضائع بما لايقل عن العشرة بالمائة ومن أجل ذلك أجبرت السفن على المرور أَما في هرمز أو في ميناء مسقط[١٥] .

وكان البرتغاليون في بداية الأمر يراعون الأذن الرسمي الذي يصدر منهم لابحار السفن في الخليج العربي ، فلا يتعرضون للسفن التي تحمله ، ثم ساء الأمر أَكثر وأَصبحت القوات البرتغالية تمارس أعمال القرصنة حتى ضد السفن التي تحمل ذلك الأذن، والذي اصبح اجراءٍ شكلياً فما إنْ تخرج السفن العربية الاسلامية إلى عرض البحر محملة بالبضائع حتى يهاجمها الجنود البرتغاليين سواء أكان لديها أذن رسمي أم لا فيسلبونها سلعها ويغرقونها بمن فيها[١٦] .

وفي ظل هذه الظروف الصعبة التي مرت بها المنطقة ظهر دور البصرة في افشال الحصار البرتغالي ، إذ ادت البصرة دوراً مميزاً ضد السياسية البرتغالية السالفة الذكر ، حيث كانت البصرة تستقبل السفن الخفيفة التي حملت البضائع المسربة من موانئ الخليج العربي بدون علم البرتغاليين إذ تم نقل تلك البضائع بعد إنَ تصل البصرة إلى بغداد ومن ثم إلى حلب ودمشق ،

وكانت تصل حتى إلى السويس والقاهرة ، مما زاد من غضب البرتغاليين على مدينة البصرة[١٧] . أي إنْ تلك المدن كانت تعيش بفضل تجارة البصرة التي صمدت أمام التحدي البرتغالي .

ومن الجدير بالذكر انه مما ساعد البصرة على الوقوف بوجه الأجراءات البرتغالية الاحتكارية العلاقات التجارية القديمة بين العراق وبلاد فارس والروابط الوثيقة بين البصرة وبغداد ، لكن البصرة عانت أيضاً بسبب ظهور العثمانيين في جنوب العراق حيث اقتضت مصلحة الصفويين الذين تنازعوا السيادة على الحويزة وجزء من شط العرب مع القبائل العربية ، ان تحالفوا مع البرتغاليين لمجابهة العثمانيين والتضييق عليهم ، فقام الاخيرون من جانبهم بملاحقة التجار الذين يتاجرون مع الاجزاء الجنوبية من العراق كونه تحت النفوذ الصفوي . فانعدمت التجارة بين الشام والعراق ، مما زاد من معاناة البصريين بسبب هذا الموقف الجديد من العثمانيين فضلاً عن الحصار البرتغالي السالف الذكر[١٨] .

ومع عدم قدرة البرتغاليين على فرض سيطرتهم على البصرة فقد غيروا سياستهم تجاهها ولم يستخدموا سياسة القوة وإنما لجأوا إلى أسلوب المراوغة والسعي لاغتنام الفرص ، حيث فسح البرتغاليون بعض المجال أمام البصرة لتكون مركزاً مفتوحاً لتوزيع بضائع الشرق ، ففي رسالة للقائد البرتغالي (الفونسو البوكيرك) مؤرخة في الثاني والعشرين من أيلول سنة ١٥١٤م كتب فيها إلى ملك بلاده الآتي : **" إنه يعلم جيداً ان العالم العربي والتركي والفارسي يتزود بالتوابل من البصرة ، وأنه لا يرى في ذلك أي خطر على مصالح البرتغال ، مادامت تلك المناطق خارجة عن النفوذ العثماني ، وما دامت الكميات المحصل عليها لاتسمح قط بمنافسة البرتغال بأوربا "** [١٩] . أي أنّ البرتغال بعد ان احتكرت تصدير البضائع الشرقية إلى اوربا فلم تهتم بما يرتسرب منها إلى البصرة ما دام لايصل إلى الاسواق الاوربية لأنه كان باهض الثمن مقارنة بالبضائع الشرقية التي كانت البرتغال تحملها إلى أوربا عبر رأس الرجاء الصالح .

وبذلك استمر دور ميناء البصرة الريادي في التجارة الاقليمية في ظل السيطرة البرتغالية على التجارة الشرقية عامة وعلى تجارة الخليج العربي خاصة ، ومن الملاحظ أن صمود البصرة التجاري في وجهه الاجراءات البرتغالية الاحتكارية ، مّثل تطوراً جديداً في السياسة البرتغالية من خلال محاولتهم التقرب من آل مغامس حكام البصرة . حيث ادعوا (أي البرتغاليين) في عدة مناسبات بأنهم على علاقات طيبة معهم[٢٠] . وهو ما يحسب لآل مغامس الذين اجبروا هذه القوى الدولية الكبرى آنذلك على احترامهم ومعاملتهم معاملة الند للند .

وتجلى التقارب بين الطرفين في سنة ١٥٢٩م حينما استعان راشد بن مغامس أمير البصرة بالبرتغاليين ضد خصمة أَمير الحويزة فبعث نائب ملك البرتغال في الهند بقوة بحرية برتغالية بقيادة (تافاريز دي سوزا) Tavares de Susa غير أن خلافاً دبّ بين القائد البرتغالي وأمير البصرة ، جعل " تافاريز دي سوزا " يدمر بعض القرى البصرية ، ثم عاد ادراجة إلى هرمز بعد ان توغل في شط العرب[٢١] ويرجع سبب الخلاف إلى رفض راشد بن مغامس مساومة البرتغاليين له حول بعض شروط التجارة مقابل مساعدته وتوفير الحمايه له ضد أمير الحويزه[٢٢] .

فكانت هذه أول حملة برتغالية إلى رأس الخليج العربي[٢٣] ومن المرجح أن البرتغاليين قد طالبوا راشد بن مغامس أمير البصرة بأن يسلمهم عدداً من السفن العثمانية (سبع سفن) مع منعه الرعايا العثمانيين من القدوم إلى البصرة لغرض التجارة وهو ما رفضه راشد بن مغامس[٢٤]، الأمر الذي جعل البرتغاليين يصبون جام غضبهم على بعض القرى البصرية كما هو مذكور سابقاً . يوضح ذلك أن البصرة كانت مكاناً مهماً للصراع الدولي ، كما يوضح ان البصرة كانت تسعى للمحافظة على استقلاليتها على الرغم من تبعيتها الاسمية للدولة العثمانية .

لم تكن نتائج هذه الحملة سوى اسباب جانبية لنمو العداء والقطيعة بين البرتغاليين وآل مغامس لأن السبب الرئيس يعود إلى الاستراتيجية البرتغالية في المنطقة التي قامت على منع أي قوى محلية من زيادة قوتها وقدرتها على منافستهم ، حيث كان البرتغاليون يراقبون حكم أمارة آل مغامس في البصرة عن كثب ، ففي رسالة من قائد الاسطول البرتغالي في منطقة الخليج العربي (كرستافوا دي مندوزا) Gristavo de Mendoza مؤرخة في السابع من تشرين الثاني ١٥٢٨م بعث بها إلى الملك جوا الثالث Don Joao 3th ألقى مندوزا الضوء فيها على سعي أمير البصرة إنشاء اسطول خاص به ، وأكدّ في رسالته على خطورة هذا الأمر على هرمز حيث مركز النشاط البرتغالي في المنطقة ، كما ألح مندوزا فيها على ضرورة منع تزايد نفوذ وقوة راشد بن مغامس ، و وقف اعتماد تجارة هرمز على البصرة[٢٥] .

وفي رسالة أُخرى بعثها هذه المرة قائد الاسطول البرتغالي في هرمز إلى ملك بلاده السالف الذكر في الثالث عشر من ايلول سنة ١٥٢٩م اخبره باعلانه الحرب على البصرة لرفض أميرها إعادة السفن التابعة لهرمز التي استولى عليها سابقاً ، ويشير تقرير برتغالي آخر بعث به قائد الاسطول نفسه إلى أن قواته مازالت في حرب ضد البصرة لرفضها تسليم السفن التي يملكونها ،

وأكدّ التقرير على وجوب ان تكون السياسة البرتغالية تجاه البصرة قائمة على القوة منذ وقت طويل مضى ، حتى لا تمتلك البصرة أي قوة من شأنها الضرر بمصالح البرتغال[٢٦] .

بذلك نستشف أن أول احتكاك عسكري بين البرتغاليين والبصرة كان بهدف مساعدة أميرها في صراعة ضد احدى القوة المحلية ، لكن الأمر انقلب رأساً على عقب بعد رفض راشد بن مغامس شروط البرتغاليين ، كما ادت سياسة البرتغايين التي كانت تخشى من نمو قوة البصرة إلى الصدام بين الجانبين .

البصرة قاعدة العثمانيين أعداء البرتغاليين

على الرغم من تمكن السلطان سليمان القانوني عاشر السلاطين العثمانيين(١٥٢٠ – ١٥٦٦م) من دخول بغداد في الثاني من كانون الاول ١٥٣٤م وضمه لوسط وجنوب العراق إلى املاك الدولة العثمانية ، إلا أن البصرة التي تعد مركز جنوب العراق لم تدخل في حيازة الباب العالي الا في الخامس عشر من كانون الاول سنة ١٥٤٦م ، عندما قضى العثمانيون على سلطة آل مغامس في البصرة[٢٧] . ومع نجاح العثمانيين في الاستيلاء على البصرة فقد بادروا إلى فتح باب الحوار مع البرتغاليين من أجل انعاش التجارة البصرية إذ أرسل محمد باشا والي البصرة التاجر العربي الحاج فياض إلى الحاكم البرتغالي في هرمز (مانويل دي ليما) Manuel de Lema تتضمن رغبة الاستانة ببقاء تجارة البصرة مفتوحة مع إقامة علاقات تجارية مع البرتغاليين . ومع أنّ الأخيرين قد اوفدوا ممثلاً عنهم إلى البصرة لرعاية مصالحهم التجارية فيها ، الا ان المحاولة في مجملها لم تنجح بسبب المخاوف البرتغالية من اتخاذ العثمانيون البصرة قاعدة لتهديد مصالحهم في الخليج العربي[٢٨] . يعود السبب في الخطوة العثمانية السابقة إلى رغبتهم في جعل البصرة **"بلداً تجارياً مزدهراً لانها ستدر ريعاً عظيماً على السلطان العثماني"** [٢٩] .

وكانت المخاوف البرتغالية في محلها اذ مثّلَ فرض السيطرة العثمانية على البصرة بدايةً لتنفيذ خطط بعيدة المدى للأستانة رمت إلى ضم شبه الجزيرة العربية وسواحل الخليج العربي الغربية والجنوبية الغربية إلى سلطة الباب العالي ، حيث أرسل اسطولاً عثمانياً إلى مسقط من السويس بقيادة (بيري ريس) أكبر قائد أسطول عثماني ، فدمر هذا الاسطول القلعة التي بناها البرتغاليون هناك ثم توجه إلى هرمز وحاصرها ، لكن البرتغاليين فكوا الحصار فغادر (بيري ريس) إلى البصرة بعد وصول امدادات برتغالية على وجه السرعة من الهند ، حيث طارد اسطول

برتغالي القوة العثمانية حتى البصرة ، التي حاول الاسطول المذكور الاستيلاء عليها لكنه فشل [٣٠] .

ومن الجدير بالملاحظة ان هذه الحادثة هي الاولى التي استخدم فيها العثمانيون البصرة قاعدة لاسطولهم . وقد أَثار هذا الأمر خشية البرتغاليين الذين ما كانوا ليرضوا بوجود قاعدة بحرية لأعدائهم العثمانيين على رأس الخليج العربي ، لأنَّ العثمانيين اتخذوا قبل ذلك السويس قاعدة بحرية لهم لمهاجمة القوات البرتغالية في المياه الشرقية والاسلامية ، فسعى البرتغاليون إلى محاولة التقرب مجدداً من أمير البصرة السابق [٣١] الذي لجأ إلى الأحساء ، بعد أَنْ نشب الخلاف بينه وبين السلطات العثمانية حينما ارسل سليمان القانوني خرم بك ليبني قلعة لمراقبة الحصون التي اعطيت لبعض العشائر العربية مكافأة لانضمامهم إلى جانب العثمانيين . فاستاءوا واستنجدوا بيحيى بن فضل أَمير البصرة الذي بدوره نجدهم بمائة سفينة . ألا ان اويس باشا والي بغداد العثماني ارسل الفي جندي إلى خرم بك مما ساعدة على هزيمة المتمردين ، لكن يحيى بن فضل رفض الخضوع فسيرت ولاية بغداد جيشاً ضده تبعه تعزيزات بقيادة والي بغداد اويس باشا نفسه فهاجم البصرة من الشمال والجنوب فانتصر العثمانيون على قوات يحيى بن فضل[٣٢]، فهناك اشارات إلى أن ألامير يحيى بن فضل طلب مساعدة البرتغاليين الذين كانوا يسعون لاغتنام أيّ فرصة قد تؤدي إلى اضعاف اعدائهم العثمانيين في شمال الخليج العربي [٣٣] سيما وان يحيى بن فضل قد وعد البرتغاليين بمنحهم حصناً في البصرة مقابل مساعدتهم له في استعادة وضعه السابق في البصرة [٣٤] .

وفي عام ١٥٥١م جهز البرتغاليون حملة بحرية تكونت من تسع عشرة قطعة وحوالي الف ومئتي رجل قادها (ألفونسو دي نورونها) Alfonzo de Noronha هاجمت ميناء القطيف واتجهت نحو البصرة لكنها لم تحقق شيء يذكر[٣٥] . ولمنع التعاون مجدداً بين أمراء البصرة المخلوعين منها والبرتغاليين ، أمر السلطان العثماني بتجهيز حملة ضد البرتغاليين ، فصدر الأمر من الباب العالي إلى السلطات العثمانية في بغداد لكي يقوم بحمله على البصرة يلتقي فيها بقوة بحرية كانت تنتظر قدومه في مينائها على أن يتم التوجهه بعد ذلك إلى هرمز لطرد البرتغاليين منها وان يقوم بيري ريس بتجهيز الحملة في البصرة [٣٦] . وفعلاً جمع بيري ريس عدداً من السفن مع رجالها ومؤنها وتحرك من البصرة في حزيران سنة ١٥٥٢م ودخل خليج عمان ، واخضع ميناء مسقط بعد أن دمر قلاعها البرتغالية ، ثم توجه نحو هرمز ودخل مدينتها لكن

القوات البرتغالية المتحصنه في القلعة التي تحمل اسم القائد البوكيرك استعصت عليه فرفع الحصار عنها بعد عشرين يوماً بعد أن صادر أَموال التجار الهرامزة وعاد إلى مصر حيث القى العثمانيون القبض عليه بتهمة الخيانة والتعاون مع البرتغاليين وأعُدمَ بأمر من السلطان وصودرت ثروته . فأّراد السلطان سليمان القانوني أن لايقع اسطوله في البصرة بيد البرتغاليين فأمر القبودان مراد بك سنجق القطيف الذي كان في البصرة حينها أنْ يعود ببعض قطع الاسطول المذكور إلى السويس مع الابقاء على البعض الآخر منها ، وفعلاً أبحر بحوالي سبع عشرة سفينة وعندما وصل إلى مضيق هرمز دارت بينه وبين القوات البرتغالية معركة شرسة فأوكل سليمان القانوني مهمة مساعدة الاسطول العثماني إلى (سيدي علي ريس) الذي وصل إلى البصرة في شباط سنة ١٥٥٤م ، فتحرك منها على رأس خمس عشرة قطعة بحرية بعد تأكده من خلو منطقة شمال الخليج العربي من السفن البرتغالية ، لكنه اصطدم في خور فكان[٣٧] بخمس وعشرين سفينه حربية برتغالية فاندلعت معركة كبيرة ، وعلى الرغم من نجاة سيدي علي ريس منها إلا انه واجه في معركة أخرى اثنتان وثلاثون سفينة برتغالية صمد أمامها ببسالة ، لكن سوء الاحوال الجوية اضعف الاسطول العثماني[٣٨] . الذي وصل إلى الهند منهكاً حيث لم يبق منه سوى ست قطع ، باعها سيدي على ريس إلى حاكم سورات So rat وعاد براً إلى الاستانه ، ومن الجدير بالذكر ان العثمانيين لم يحققوا تفوقاً كبيراً على البرتغاليين في مياه الخليج العربي وسواحل الهند بسبب عدم اعتمادهم على البصرة كقاعدة بحرية لهم لعدم توفر الاخشاب الصالحة لبناء السفن[٣٩] لكن يرجح ان هناك اسباباً اخرى تتمثل بعدم قدرة العثمانيين على فرض سيطرتهم المباشرة على البصرة بسبب رفض العشائر المحيطة بها الخضوع لسلطتهم ، فضلاً عن كثرة خلجان البصرة ومستنقعاتها ، الأمر الذي جعلها غير صالحة لأن تكون قاعدة بحرية[٤٠] .

وتكررت المحاولات البرتغالية للسيطرة على البصرة سنة ١٥٥٦م لكنها لم تحقق شيئاً كسابقتها ويعود الأمر إلى سوء الاحوال الجوية هذه المرة[٤١] كما تكررت في سنة ١٥٥٩م وتحديداً في السادس والعشرين من شهر رمضان المبارك سنة ٩٦٦هـ ، حيث اتجهت عشرة سفن برتغالية من نوع (غراب) نحو البصرة لكنها انسحبت بعد تقدم سفينتين عثمانيتين ، حيث بدأ في هذه المدة حصار الاسطول العثماني للبحرين المحتلة من القوات البرتغالية[٤٢] .

البرتغاليون والبصرة في ظل حكم اسرة آل افرسياب

شهد القرن السادس عشر الميلادي تطورات جديدة في محيط البصرة الأقليمي وفي داخلها المحلي ، كان لها أثر في استمرار دورها المهم على مستوى التنافس الدولي في منطقة الخليج العربي ، ففي جوار البصرة الشرقي بسط الصفويون سيطرتهم على اجزاء كبيرة من بلاد فارس واخذوا يتطلعون إلى الخارج ، سيما منطقة الخليج العربي والعراق ، وقد شجعهم في ذلك تدهور الاستعمار البرتغالي في المنطقة[٤٣]. ومن جهة اخرى تأثر العراق بسرعة بمظاهر ضعف الدولة العثمانية ، حيث ظهرت قيادات عسكرية عمدت إلى الاعتماد على قوتها من أجل الوصول إلى السلطة تحت التبعية الاسمية للسلطان العثماني أذ تمكن كاتب من كُتَّاب الجند ان يشتري حكم البصرة من والي بغداد العثماني وذلك في سنة ١٥٩٦م . ولم يكن هذا الكاتب سوى أفرسياب (١٥٩٦-١٦٠٤م) الذي أسَّس حكم أسري في البصرة امتد حتى سنة ١٦٦٨م ، تمتعت البصرة خلاله بعهد من الاستقرار والامن لم تعرفه منذ سنوات خلت[٤٤] . حيث وصلها الرحالة البرتغالي (بيدرو تكسيرا) Pedro Teixeria في الأول من آب سنة ١٦٠٤م اذ وصف البصرة وحاميتها وحكومتها وأشار إلى ان جميع السلطات فيها تنحصر بشخص الباشا (اي افراسياب) [٤٥] ويذكر تكسيرا بان السفينة التي كانت تقلة بقيت في شط العرب مدة خمسة ايام ثم توجهة إلى منطقة (سراج) ويقصد منطقه السراجي التي تحمل اسم احد افرع شط العرب ، وقد قضى تكسيرا عدة أيام في بيت صديق له من الشام قبل ان يتوجهه إلى بغداد بواسطة الجمال عبر الصحراء[٤٦] .

بعد نجاح البصرة في تجاوز آثار الحصار التجاري البرتغالي عليها وما تبعه من محاولات لفرض النفوذ البرتغالي عليها بالقوة ، كان على البصرة ان تواجه محاولات الدولة الصفوية للسيطرة عليها هذه المرة ، لأن الصفويين الذين استطاعوا بمساعدة الانكليز من طرد البرتغاليين من هرمز سنة ١٦٢٢م وجهوا اهتمامهم إلى البصرة . التي اصبحت مركزاً للنشاط البرتغالي في الخليج العربي ، والتي وجّدوا فيها كل ترحيب من حاكمها افرسياب[٤٧] .

ويبدو أن افرسياب أراد اللعب مع كل الاطراف من اجل المحافظة على مركز مستقل له وبالتالي للبصرة ، إذ فتحت المدينة أبوابها وممراتها المائية أَمام التجار الهولنديين والانكليز والبرتغاليين مما أدى إلى ازدهار المدينة[٤٨] . حيث ذكر الرحالة الايطالي ديلافالية الذي زار البصرة في مطلع القرن السابع عشر الميلادي إن تجارتها انتعشت بعد استيلاء الصفوين والانكليز على قلعة هرمز كما ازداد توافد البرتغاليين العاملين في الهند اليها[٤٩] .

فبعد ان استولى الشاه (عباس الكبير) (١٥٨٧-١٦٢٩م) على بغداد في الثامن والعشرين من تشرين الثاني سنة ١٦٢٣م[٥٠] سعى إلى فتح كل العراق من خلال الاستيلاء على البصرة بعد ان استولى على الموصل وكركوك ، لكن البصرة كان فيها الحكم الافرسيابي عميق الارتباط بالاهالي ، فقد ادرك الشاه عباس أن طرد البرتغاليين من هرمز ليس كافياً للقضاء على وجودهم في الخليج العربي إذ لابد من السيطرة على البصرة وطردهم منها ، لأّن البرتغاليين كانوا يسيطرون على تجارة البصرة والقطيف والاحساء ، فالصفويون الذين لم يكّونوا اسطولاً في الخليج العربي كان من المستحيل عليهم وقف نشاط البرتغاليين التجاري الا عن طريق حصار بري بالاستيلاء على الموانئ التي كانوا يتعاملون معها خاصةً البصرة ، ومن جانبهم كان البرتغاليون مستعدين للتعاون مع حكام البصرة إلى أبعد مدى للمحافظة على ما تبقى لهم من نفوذ في المنطقة[٥١] .

وفضلاً عن التجارة جعل البرتغاليون من البصرة مركزاً لنشاطهم التبشيري في المنطقة ، حيث أسسوا فيها **"جماعة دينية وحلقة تعليمية "**[٥٢] عرفت بأسم الاوغسطنيين وكان كل رهبانها من البرتغاليين الكاثوليك وكان كبيرهم يحمل لقب (نائب رئيس أساقفة غوا) في الهند ، و دخل الاوغسطينون في تنافس شديد وصل حد العداء المكشوف ضد الكرمليين وهم فرقة كاثوليكية فرنسية ، ومن الجدير بالذكر أُنْ حكام البصرة لم يتدخلوا في هذا الصراع وكانوا يتصرفون بالدرجة نفسها من التساهل تجاه البرتغاليين والفرنسيين على حداً سواء[٥٣] .

أصبحت البصرة من جديد هدفاً لقوتين ، شرقية ناهضة متمثلة بالدولة الصفوية والثانية غربية آفلة للزوال متمثلة بالبرتغال ، فقد بعث الشاه (عباس الكبير) إلى حاكم البصرة خلعاً فاخرة والقاباً فخمة لاستمالته إلى جانبه وطلب في الوقت نفسه أن يسك العملة باسمه وأنُ يعقد أهل البصرة عمائمهم على الطريقة المتبعة في بلاد فارس ، مقابل وعد من الشاه بإبقاء حكم البصرة في الاسرة الافرسيابية ، وأنْ يعفية من الجراية السنوية ، ويترك له تصريف امور البصرة بحرية ، لكن رسول الشاه **" لم يجد الا الطرد قبل اللقاء "**[٥٤] . يبدو أنَ الشاه أراد إضفاء صفة بلاده على البصرة ، غير أن حاكمها واهلها كانوا يعتزون بهويتهم ، فضلا عن ان الشاه كان يتصرف تجاه البصرة وكأنها تابعه له من خلال إعفائها من الجراية التي لم تدفعها المدينة قط ، وكان أهل البصرة يعلمون إنْ تلك الشروط لم تكن الا مقدمة لفرض السيطرة المباشرة على مدينتهم ، لان الشاه لم يكن ليرضى بتبعية البصرة الأسمية له فقط .

أمام هذا الموقف الحرج الذي مرت به البصرة وحاكمها (علي باشا افرسياب) الذي آلت اليه ألامور فيها بعد وفاة ابيه ، لم يجد بداً من اللجوء للبرتغاليين اعداء الصفويين اللدودين إذ أرسل سفينة محملة بالهدايا إلى قائد الاسطول البرتغالي في الخليج العربي (روي فيريرا) Rue Firera ومعها رسالة تدعو لعقد تحالف بين الطرفين ضد الصفويين حيث يقوم البرتغاليون بموجبه بارسال ست سفن كبيرة لحماية البصرة من تهديدات الصفويين وتعهد علي باشا بدفع تكاليف تلك السفن طالما بقيت يحميه ، حيث فرح (فيريرا) بهذه الدعوة لأنها اعطته إحساساً كبيراً بالأهميه ، فأجتمع مع كبار ضباطه وتم الموافقة على طلب علي باشا ، فجهزت قوة بحرية قادها (دوم كونسالو دا سلفا)[٥٥] Dom Gonzalo da selfira الذي كان تواقاً للانتقام من الصفويين لما فعلوه بهم في هرمز وكانت القوة مكونة من خمس سفن كبيرة ومثلها صغيرة وعلى متنها مائتن جندي أبحرت من مسقط في كانون الثاني سنة ١٦٢٤م[٥٦] .فاصبحت قوة الطرفين الصفوي والبصري متساوية إلى حدً كبير ، فعلى الرغم من تفوق القوات الصفوية عددياً فقد كان الدفاع عن البصرة اوالاستيلاء عليها يتطلب استخدام قوة بحرية مناسبة[٥٧] كي تستطيع دك حصون المدينة على شط العرب وهوما كان تفتقر له القوات الصفوية .

ويذكر (لونكريك) ان علي باشا افرسياب دفع للبرتغاليين اموالاً مقابل استقدام سفنهم الخمس للبصرة ، و كان صد الهجوم الصفوي يعتمد اسساً على صمود اهالي البصرة ، حيث اعلنت السلطتها المحلية النفير العام فيها ، وساهم تجارها واشرافها في تسليح المتطوعين للدفاع عنها [٥٨] ومع استعدادات الطرفيين للمعركة البرية الفاصلة حدثت عدة مناوشات دون أن يغزو جيش الشاه الرئيسي البصرة[٥٩] وقد بدأت تلك المناوشات في السادس عشر من آذار سنة ١٦٢٥م . فقامت ثلاث سفن برتغالية بمنع قوات الشاه عباس من نقل سبع مدافع من أحد موانئ الدورق قرب الحويزة ، حيث كانت قوات الشاه تنوي استخدامها في ضرب تحصينات البصرة[٦٠] لكن امراً غريباً حدث بعد ذلك اذ غادر جيش الشاه عباس معسكرة قرب البصرة في الثالث والعشرين من آذار سنة ١٦٢٥م على وجه السرعة حتى انه ترك الكثير من مؤنه في معسكره ، ولم تعرف اسباب ذلك على وجه التحديد[٦١] . وربما يعود الأمر إلى تمرد حدث في بلاده اراد الشاه القضاء عليه بسرعه .

ويذكر (روي فيريرا اندرادي) في مذكراته إنه فقد **"ستين مقاتلاً بين ميت من الأمراض وجراح المعارك "**[٦٢] .

وعلى الرغم من نجاح المساعدة البرتغالية في المحافظة على وضع البصرة المستقل ، فإن علاقات البرتغاليين مع حكامها لم تتطور بعد ذلك حتى مع فتح (علي باشا افرسياب) موانئ البصرة أمام التجارة البرتغالية[٦٣]، بسبب تراجع الوجود البرتغالي في المياه الشرقية نتيجة التنافس الانكليزي والهولندي لهم ، فضلاً عن أسباب تتعلق بالوضع الداخلي في البرتغال نفسها سيّما بعد ان اصبحت جزءاً من اسبانيا خلال المدة ١٥٨٠-١٦٤٠م اذ ضعفت الامدادات العسكرية إلى المستعمرات البرتغالية في الشرق[٦٤] فاخذت تجارة البتغاليين مع البصرة تضعف باطراد حتى سنة ١٦٤٠م حينما انقطعت علاقات البرتغاليين بالبصرة ، بسبب طردهم من الخليج العربي وتلاشي وجودهم فيه حيث لم ترد بعد ذلك إشارة تخص علاقتهم بالبصرة ، حتى سنة ١٦٦٣م حينما زارها الرحالة البرتغالي (غودينهو) Godinho الذي وصفها بانها أعظم سوق تجاري في منطقة الخليج العربي[٦٥] .

الخاتمة :

كانت البصرة بحكم موقعها وطبيعة الاوضاع الدولية والأقليمية حلقة مهمة من حلقات الصراع الدولي في منطقة الخليج العربي . وعليه اختلفت اشكال العلاقة بين البرتغاليون والبصرة فقد بدأت من خلال مرور أحد الرحالة البرتغاليين اليها ثم تطورت إلى علاقات تجارية ما لبثت أن تحولت إلى صدام عسكري لأن البرتغاليين حاولوا فرض سيطرتهم عليها بالقوة ، لكن ظهور الصفويين في ايران جعل البرتغاليون يحاولون اقامة علاقات طيبة مع البصرة ، التي تحولت إلى قاعدة أساسية لنشاطهم التجاري والتبشيري في منطقة الخليج العربي . واستطاعت البصرة ان تروض السياسة البرتغالية ذات الطابع العنيف وتحولها إلى مراعاة المصالح التجارية لتكون خير منفذ للوجود البرتغالي لكن الوقت كان قد ازف بالنسبة لنفوذهم في المنطقة . وقد حاولت البصرة استغلال ذلك الصراع الدولي للمحافظة على استقلاليتها عن الباب العالي على الرغم من التبعية الاسمية لها لأن وضعها التجاري المتميز مكنّها من أن تكون مطمعاً لكل القوى في المنطقة .